مجلة الدراسات الأثرية ISSN: 1111-7699
المجلد:22 / العدد:01 / 2024 / ص ص 293 - 303 EISSN 2600-6499

قلعة بني حماد في ذاكرة التاريخ

The Qalaa of Beni Hammad in history's memory

عبد الكريم عزوق*
جامعة الجزائر2 - abdelkrim.azzoug@univ-alger2.dz

تاريخ الإستلام:2024/04/03 تاريخ القبول:2024/11/24 تاريخ النشر:2024/12/31

الملخص

تعدّ دولة بني حماد إحدى الدول الإسلامية التي أقيمت على أرض الجزائر، وتنسب إلى مؤسسها حماد بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وتعتبر قبيلة صنهاجة من أوفر قبائل البربر وتفرعت إلى عدة بطون، وتعتبر قلعة بني حماد عاصمة الدولة الحمادية التي تأسست سنة 398هـ الموافق لـ: 1007م، ولقد بلغت الدولة الحمادية أوج تقدمها وتطورها في عدة مجالات لاسيما ميادين الفن والعمارة والعمران والعلوم بالرغم من أنها لم تعمر أكثر من نصف قرن من الزمن، ولقد أشادت الكثير من المصادر التاريخية بالمكانة التي احتلتها القلعة آنذاك، وهذا ما كشفت عنه بعض الحفريات الأثرية التي أقيمت بالقلعة قبل الاستقلال وبعده، وهي أعمال غير كافية تنتظر مزيدا من التنقيبات الأثرية في أماكن عدة من القلعة، علما أن الموقع الأثري للقلعة مصنف ضمن التراث العالمي، ويهدف هذا المقال إلى استنطاق الآثار الباقية في القلعة بعد خرابها وإلى مخلفاتها المادية المحفوظة ببعض المتاحف الوطنية والدولية، والتي مازالت ليومنا هذا محفوظة في ذاكرة تاريخ الدولة الحمادية، وهذا من أجل التوصل لدرجة الرّقيّ والتّطوّر الذّي ميّز الحضارة الحمّاديّة للقلعة، مع ذكر بعض التّأثيرات الفنّية والمعماريّة التي صدّرتها قلعة بني حمّاد لبعض المناطق المجاورة وللدور الذي أدّته القلعة الحمادية في تاريخ الحضارة الإسلامية بالجزائر.

الكلمات المفتاحية: قلعة، بني حماد، عمارة، عمران، فنون.

Abstract: The state of Bani Hammad is one of the Islamic states that was established in Algeria, and attributed to its founder Hammad Ibn Buluggin Ibn Ziri Ibn Manad Al-Sanhaji. The Sanhaja tribe is considered one of the most prominent Berber tribes, branching into several branches. The fortress of Bani Hammad was the capital of the Hammadid state, which was founded in 398 AH corresponding to 1007 AD. The Hammadid state reached the pinnacle of progress and development in several fields, notably in art, architecture, urbanization, and sciences, although it did not last for more than half a century. Many historical sources praised the position that the citadel held at that time, which was revealed by some archaeological excavations carried out in the fortress before and after the independence. These insufficient works are still waiting further archaeological excavations in several areas, knowing that the archaeological site of the fortress is classified as a World Heritage Site. This article aims to highlight the remains of the fortress after its ruin and all the artefacts preserved in some national and international museums, in order to reveal the level of sophistication and development that characterized the Hammadid civilization. We also expect mentioning some artistic and architectural influences exported by the fortress of Bani Hammad to some neighboring areas and the role played by the Hammadid citadel in the history of Islamic civilization in Algeria.

Keywords: fortress, Bani Hammad, architecture, urbanization, arts.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

تعتبر قلعة بني حماد عاصمة الحماديين الأولى والتي بلغت أوج تطورها وتألقها الحضاري خاصة بعد انتقال أصحاب الثراء من المغرب الأدنى من التجار والعلماء والحرفيين ليضيفوا لها قوة اقتصادية وازدهارا ثقافيا لم يشهده المغرب الأوسط في تاريخه. وإن كان الآن من الصعب جدا معرفة النسيج العمراني للقلعة، لأنه لم يتبق إلا القليل من آثارها التي تم اكتشافها في حفريات سابقة، فلم يبق بين يدي الدارس لقلعة بني حماد إلا تلك النصوص التاريخية التي أشادت في وصفها ومدى التطور والرقي الذي وصلته في مختلف الميادين وإنها حقا كانت عاصمة ذائعة الصيت رغم المدة القصيرة التي عاشتها القلعة حيث لم تعمر أكثر من نصف قرن من الزمن، مما جعل حالها يشبه ثلاث مدن في العالم الإسلامي: سامراء في العراق، والزاهرة في الأندلس والمنصورة في تلمسان.

1/ موقع القلعة:

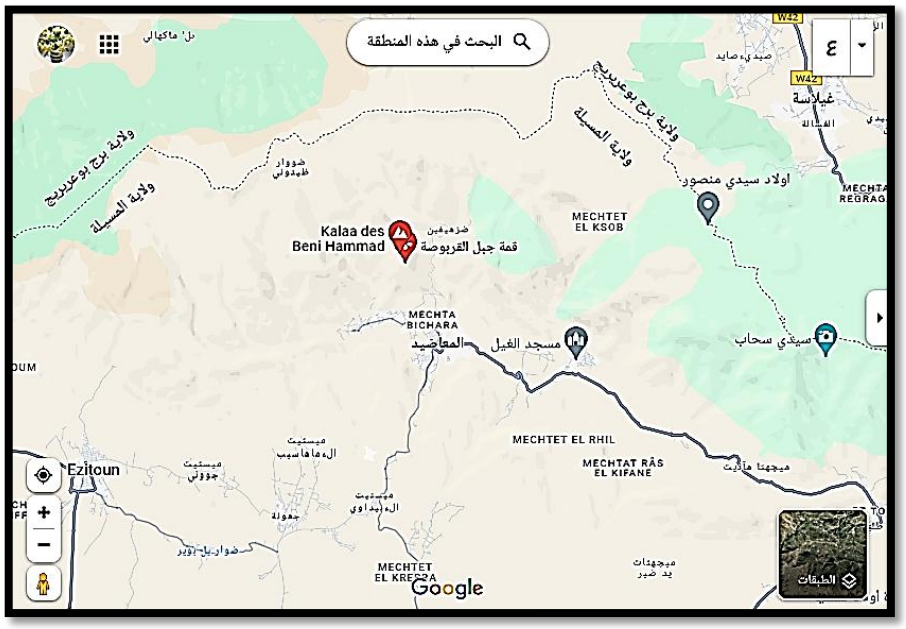
تقع قلعة بني حماد المصنفة ضمن التراث العالمي منذ سنة 1980م على بعد 36كلم شمال شرق مدينة المسيلة، وتبعد عن الجزائر العاصمة بـ: 185كلم، وعن مدينة بجاية بـــ: 104كلم على خط عرض 5شرقا وجموب خط طول 36[1].

يتميز موقع قلعة بني حماد باستراتيجية هامة باعتباره قلعة حصينة كما ذكرته المصادر التاريخية[2]، بنيت على سطح منحدر على سفح جبل تاقربوست على ارتفاع 1481م على الحدود الشمالية لسهول الحضنة. يحدها شرقا وادي فرج الذي يجري من الشمال إلى الجنوب، أما غربا فتوجد قمة الغورين على ارتفاع 1190م، وجنوبا يقع المدخل الوحيد للمدينة وهو عبارة عن طريق كثير التعاريج يساير وادي فرج. تتميز القلعة بمناخ جاف نظرا لاحتجابها عن المؤثرات المناخية البحرية بجبال القبائل الصغرى وجبال البابور وسلسلة جبال البيبان، كما تمتاز بتضاريس وعرة تميزها مرتفعات الحضنة.[3]

[1] Gsell (st), Atlas archéologique de l'Algérie, F.N°25, paris, Alger-1, 1911.

[2] البكري (أبو عبد الله)، وصف إفريقيا، ت: دوسلان، باريس، 1965، ص49.

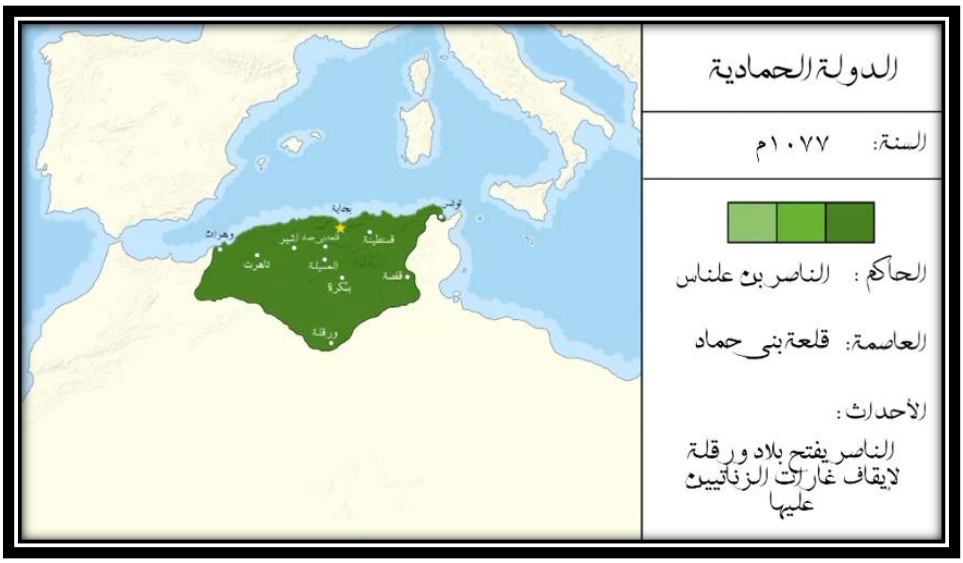
[3] La Kalaa des Beni-Hammades, Rapport de mission Polono-Algérienne, 1987-1988, Varsovie, 1990, vol 1, p.05.



الصورة رقم01: موقع قلعة بني حماد (عن: غوغل إيرث)

2/ تأسيس مدينة قلعة بني حماد:

تنسب الدولة الحمادية إلى مؤسسِّها حماد بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وامتدّت حدود الدولة الحمادية ما بين عنابة شرقا وتلمسان غربا وورقلة والزاب جنوبا، ووصلت أحيانا إلى إفريقية وفاس غربا في أوج ازدهار الدولة.



الخريطة رقم 01: امتداد الدولة الحمادية (عن أطلس تاريخ الجزائر: عادل أنور خضر)

ويبدأ تاريخ القلعة في حدود سنة 387هـ/997م، ولقد أظهر حماد مقدرة كبيرة على الصعيدين السياسي والحربي مما مكنه من الانفراد بزعامة منطقة المغرب الأوسط، الأمر الذي شرع في تجسيده سنة 398هـ/1007م حيث بدأ في اختطاط أول عاصمة للدولة الحمادية، وتم تمصيرها بعد أن نقل إليها سكان المسيلة ووادي حمزة، كما استقدم قبيلة جراوة من المغرب الأقصى، وأحاط المدينة بسور وبنى بها عدة مساجد وخانات (فنادق) ومبان عمومية.

ولم يكن تأسيس القلعة ضربا من ضروب الصدفة إنما جاء وفق خطة محكمة واختيار مسبق مراعاة في ذلك كل ما من شأنه أن يؤثر بالسلب على المدينة. لأن الموقع الحصين يصعب حصاره كما لم يهمل إنداد المدينة بالمياه وهو شرط أساسي في تخطيط المدن، وعلى العموم حكم الحماديون المغرب الأوسط من 408هـ-1018م إلى 547هـ-1152م[4].

أفلَ نجم القلعة حيث لم تعمر أكثر من نصف قرن من الزمن لتنتقل إلى العاصمة الثانية وهي بجاية في عهد الناصر بن علناس وذلك في حدود 459هـ/1067م.

3/ قلعة بني حماد من خلال المصادر التاريخية:

- عبد الرحمان بن خلدون (1406/1332م)

يصف قلعة بني حماد في قوله: "...واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال، ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها، وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المئة الرابعة، وشيّد من بناياتها وأسوارها، واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع"[5].

[4] بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص116.

[5] ابن خلدون، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب وهو القسم الاخر من التاريخ الكبير المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر، الجزائر، 1847، ج1، ص221.

- أبو عبيد الله البكري (1030/1094م):

وصف القلعة بقوله: "...وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، تمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي مقصد التجار، وبها تُحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مملكة صنهاجة"[6].

- ياقوت الحموي: (1178م/ 1229م):

وصفها بقوله: "قلعة بني حماد مدينة متوسطة بين أكَم وأقران لها قلعة عظيمة قمة جبل يسمى تاقربوست، تشبه في التحصين ما يحكى عن قلعة أنطاكية، وهي قاعدة ملك بني حماد"[7].

- الإدريسي الشريف (1100/1166م):

يصفها بقوله: "...ومدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا، وأوسعها أموالا، وأحسنها قصورا ومساكن، وأعمها فواكه وخضرا، وحنطها رخيسة، ولحومها طيبة سمينة، وهي في سند جبل سامي العلوّ، صعب الارتقاء، وقد استدار سورها بجميع جبل تاقربوست..."[8] .

4/ تاريخ الأبحاث الأثرية بقلعة بني حماد:

رغم الدراسات التي أجريت حول قلعة بني حماد من الناحية الأثرية فهي مازالت تحتاج إلى المزيد للكشف عن مخزون أثري آخر، بإمكانه أن يضيف رصيدا أثريا لما تم اكتشافه سابقا، وهنا لابد من الإشارة إلى أن الأبحاث انطلقت من قِبل:

- الكاتب الفرنسي (فيرو Feraud) ضمن دراسة تناول فيها عددا من مدن مقاطعة قسنطينة في ذلك الحين، موجها الاهتمام فيه إلى ذكر القيمة التاريخية والأثرية لآثار قلعة بني حماد.

- أول من قام بإجراء حفرية أثرية منتظمة بالقلعة هو الباحث الفرنسي (بلونشي Blanchet) لمدة لا تتعدى ثمانية (08) أيام.

- ثم يليه السيد (روبار Robert) مدير بلدية المعاضيد في تلك الفترة بنشر دراسة تطرق فيها إلى وصف آثار قلعة بني حماد.

---

[6] البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بغداد، (د.ت)، ص49.

[7] ياقوت الحموي، معجم البلدان، طهران، 1965م، المجلد 4، ص163،164.

[8] الادرسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لندن، 1864 ، ص86.

– في سنة 1908 قرر اللواء (دوبايلي Debeylie) إكمال ما بدأه بلونشي، وخلال مدة حفرياته التي امتدت ما بين 1أفريل و15سبتمبر 1908م، ركز أبحاثه على ثلاث وحدات من المدينة بدت له رئيسية وهي: (برج المنار، قصر البحر، والمسجد).

– في سنة 1951م بدأ (لوسيان غولفان) حفريات أثرية استغرقت سبع (07) سنوات توصل فيها إلى نتائج طيبة نشرت في كتاب خاص بالأبحاث التي قام بها[9].

– في سنة 1968م قام الأثري الجزائري رشيد بورويبة بحفريات أثرية بالقلعة.

– في سنة 1987م إلى 1988م تم إجراء بحث مشترك من بعثة بولونية وجزائرية في إطار مشروع ترميم معالم قلعة بني حماد.

5/ آثار قلعة بني حماد ودورها الحضاري:

إن المخلفات المادية للحماديين ونقصد بها الآثار التي تشهد بحق عن مقدرة الفنان الحمادي وبراعته في مجال العمارة والفنون، بالرغم من أن معظم آثار القلعة لم تكتشف بعد، ونذكر من آثارها المساجد والقصور والحصون منها ما اكتشف ومنها ما لا يزال دفين الأطلال، ومنها ما دثرت آثاره، والذي لا شك فيه أن الفنون الحمادية كان لها حظ كبير في التأثير على فنون الأندلس، كما تبادلت مع المشرق الإسلامي التقاليد الفنية المختلفة، وإن ظلت تحتفظ إلى حدّ كبير بشخصيتها الواضحة.

ولعل من أهم آثار الحماديين في القلعة المسجد الجامع، ومسجد قصر المنار الذي كشفت عنه حفريات الأثري الجزائري رشيد بورويبة سنة 1968م، ولهذا المسجد أهمية كبيرة حسب رأيه[10]، إذ يعتبر أصغر مسجد في العالم الإسلامي كله، وهو المسجد الوحيد التابع لقصر يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامي، وأن زخارف محرابه تتشابه مع زخارف المحراب الموجود بقبة الصخرة بالقدس الشريف، والذي يرجع تاريخه إلى عهد الملك عبد الملك بن مروان.

وخلف الحماديون أيضا أربعة قصور في القلعة هي قصر المنار وقصر البحر وقصر السلام وقصر الكوكب، وبعض الآثار كالآبار والأحواض والجسور.

[9] Lucien Golvin, Recherches archéologiques à la Kalaa des Beni Hammad, GP Maison neuve et la rose, Paris, 1965.

[10] رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص216.

وفي المجال الفني ومن خلال ما تبقى من آثار الحماديين في القلعة وفي مختلف المتاحف الوطنية والعالمية على غرار (متحف اللوفر بفرنسا، ومتحف الآثار القديمة والفنون الإسلامية بالجزائر، ومتحف سطيف الوطني، ومتحف سيرتا الوطني بقسنطينة ومتحف قلعة بني حماد) يتضح أنهم تركوا نماذج رائعة من الخزف وبعض الأواني متعددة الزخارف بالإضافة إلى بعض القبور وشواهدها وبعض القطع الحجرية المنقوشة وكذلك زخارف على الجص والبرونز.

وتم العثور أيضا على قطع زجاجية ونقود ودراهم وبعض الحليّ وغيرها.

6/ نماذج من المعالم والتحف الأثرية لقلعة بني حماد:



الصورة رقم 02: بقايا المسجد الجامع بقلعة بني حماد ومئذنته.



الصورتان رقم 03 و 04: مصلى قصر المنار بقلعة بني حماد وزخارف محرابه.

ISSN: 1111-7699
EISSN 2600-6499



الصورة 05: قصر المنار



الصورة 06: قصر البحر



الصورة 07: حوض حمام أثناء العثور عليه في حفريات دوبايلي (عن: دوبايلي)



الصورة 08: عنصر معماري من الجص



الصورة 09: شاهد قبر حجري



الصورة 10: حلي القلعة أقراط

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية



الصور 14/13//12/11: خزف قلعة بني حماد



الصورتان 16/15: عناصر معمارية (رأس أسد بمدخل أحد قصور القلعة وعمود منارة مسجد قلعة بني حماد) محفوظة بمتحف الآثار القديمة والفنون الإسلامية

إن الآثار التي خلفها الحماديون في القلعة وهي موقع مصنف ضمن التراث العالمي منذ سنة 1980م تمثل ذروة ما توصل إليه عطاء الفنان الحمادي وخلاصة تجاربه في مجال العمارة والفنون، بالإضافة إلى التجارب المستوردة والقادمة من خارج حدود الدولة الحمادية كالقيروان ومصر وجنوب إيطاليا (صقلية).

ولذلك يمكن اعتبار الحماديين أصحاب طراز معماري جديد يرتبط بأصوله ومحيطه، ويعتبر كل ما أنتجه الحماديون إضافة جديدة للحضارة الإسلامية، وأن ما تبقى من آثار بني حماد في القلعة صورة صادقة لإبداعهم المعماري والفني في عاصمتهم الأولى (القلعة) وحرصهم على توفير عناصر الحياة في حاضرتهم متحدين بذلك وعورة وقساوة المنطقة، ولعل عمارتهم تتسم بالأصالة والإبداع والتجديد والإضافة في مختلف المجالات، وهي مازالت شاهدة عليهم حيث تركت بصماتها واضحة في حضارة وتاريخ الجزائر.

7/ آفاق البحث الأثري في القلعة:

هل تعكس المكتشفات الأثرية الحالية الصورة الحقيقية والحضارية لقلعة بني حماد؟

لا أعتقد ذلك. لأن ما اكتشف من آثار القلعة لا يتعدى 20% و 80% كلها تحت الأنقاض بالنظر لما ورد في كتب المؤرخين عن عمرانها وعمارتها، وعليه لابد مما يلي:

- فتح حفريات أثرية في مناطق متعددة من القلعة.
- تتبع سور القلعة لتحديد الحيز الأثري العام للموقع.
- معرفة النسيج العمراني للقلعة وتوزيع الوحدات المعمارية فيها.
- معرفة طبيعة المعالم الأثرية المدفونة تحت الأطلال من حيث التخطيط والنمط.
- معرفة فنون قلعة بني حماد وصناعاتها التطبيقية من خلال التحف الأثرية والفنية المدفونة فيها.
- توزيع الوحدات المعمارية داخل المدينة.
- معرفة الاستحكامات العسكرية وتحصين المدن الإسلامية بالمغرب الأوسط في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي بالغرب الإسلامي.
- مباشرة الأعمال الأثرية الميدانية لإثراء التاريخ الحضاري للقلعة.

قائمة المصادر والمراجع:

01/ باللغة العربية:

- البكري (أبو عبد الله)، وصف إفريقيا، ت: دوسلان، باريس، 1965.
- ابن خلدون، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب وهو القسم الاخر من التاريخ الكبير المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر، الجزائر، 1847، ج1.
- الادرسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لندن، 1864ن.
- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، بغداد، (د.ت).
- بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
- ياقوت الحمي، معجم البلدان، طهران، 1965م، المجلد 4.

ISSN: 1111-7699
EISSN 2600-6499

02/ باللغة الأجنبية:

- Gsell (st), Atlas archéologique de l'Algérie, F.N°25, paris, Alger-1, 1911 .

- La Kalaa des Beni-Hammades, Rapport de mission Polono-Algérienne, 1987-1988, Varsovie, 1990, vol1.

- Lucien Golvin, Recherches archéologiques à la Kalaa des Beni Hammad, GP Maisoneuve et la rose, paris, 1965.